المنهج اللغوي في تفسير القرآن الكريم لعائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ"

أ. عالية أكرم *

ملخص

يبدأ هذا البحث بتقديم عائشة عبد الرحمن التي مثّلت جهودها في تفسير القرآن الكريم تطبيقا واعيا للمنهج اللغوي في التفسير. وقد قدمها البحث من خلال الوقوف على أهم معالم رحلتها العلمية، وأبرز جهودها العلمية وما تتضمّن من كتب ودراسات.

ثم يرصد البحث بعد ذلك منهجها في التفسير فيبيّن المصدر الذي يرجع إليه، وقواعده العامة التي تتمثل في استقراء نظائر الآية، ودراسة هذه النظائر لغويا، وتدبر السياق الخاص بالآية والسورة، ومراعاة السياق القرآني. وقد عرض لجوانب دراسة عائشة عبد الرحمن لنص الآية، فبيّن ما سجلته من قواعد تخص الحرف، و الكلمة، والتعبير أو الأسلوب.

---

* محاضرة بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد.

معالم الرحلة

أسلمت الأستاذة الدكتورة عائشة محمد على عبدالرحمن الروح إلى بارئها في بداية ديسمبر من عام ألف وتسعمائة وثمانية وتسعين بعد أن فضت عمرها كله مع كتاب العربية الأكبر. وهي تعدّ "إحدى العالمات المسلمات العربيّات القلائل اللائى عشن فى رحاب القرآن الكريم يتفيَّأن ظلاله القدسية، ويستلهمن هدايته السماوية ويستشعرن أصول الإعجاز الإلهي كلما تمثلن آياته الكريمة تلاوة أو دراسة أو ترديداً [1]

وقد كانت الدكتورة عائشة عبدالرحمن أستاذ كرسى اللغة العربية وآدابها بجامعة عين شمس وأستاذة الدراسات القرآنية العليا بجامعة القرويين بالمغرب.

وقد اتخذت لها لقب "بنت الشاطئ" لئلا تعلن عن اسمها الحقيقى فى دراستها بكلية الآداب التى منعها أبوها من الالتحاق بها فاستعارت لها هذا اللقب. كما عرفت نفسها به في كتابتها للمجلات لما تمثله مشاركة المرأة فى الصحافة في هذا الوقت من ظلال لا تتناسب مع ما عرف به بيت أبيها من فضل وعلم ومحافظة على التقاليد .

---

١ ـ الشكعة، د. مصطفى (١٩٧٢م) مقدمة لأسرار العربية في البيان القرآنى لعائشة عبد الرحمن. بيروت: جامعة بيروت العربية، ص ٥ .

وقد جاءها هذا الاسم من اعتيادها شاطئ النيل فى دمياط يوميا بعد غرق جدتها فى نهر النيل؛ حيث كانت تجلس على هذا الشاطئ فى انتظار أن تعود جدتها التى طواها تياره الجارف.

على أن هذا اللقب قد جاءها بفأله الطيب؛ حيث سلكت مسلك ورثة الأنبياء وحملة العلم فكأنما قد نوديت من شاطئ النيل كما نودى نبى الله موسى، عليه السلام، الذى يخبرنا ربنا، عز وجل، عنه في قوله الكريم: " فلما أتاها نودى من شاطئ الوادي الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين " (القصص: ٣٠) ؛ فقد كان أمرها أن سلكت منهجا جديداً فى الوصول إلى الله رب العالمين.

وقد بدأت رحلتها المباركة في العلم مع بواكير طفولتها التي قضتها فى دمياط بعد انتقال أبيها إليه من قريته شبرابخوم بمحافظة المنوفية"، فتربت فى دمياط بمصر. وقد حفظت القرآن الكريم، منذ صغرها. وتذوقت الأسلوب القرآني علي يد أبيها بداية كما تحكى عن نفسها، تقول:

"بحكم نشأتي فى بيت علم ودين ألفت منذ الصغر أن أصغى بكل وجدانى إلى هذا القرآن، وأن أتلو آياته بخشوع، لكنى لم أع بيانه حق الوعى، إلاّ بعد تخصصى في دراسة النصوص، واتصالى بأصيل ما للعربية من تراث أدبى، فكنت كلما ازددت تعمقا فى الدرس، وفقهًا للعربية وقفت مبهورة أمام جلال هذا النص المحكم، وعدت أتلو من معجز آياته ما أدركت معه لماذا أعيا العرب، وهم أصحاب الفن القولى واللغة طوع لسانهم، أن يأتوا بسورة من مثله، فآمنوا بنبوة محمد، صلى الله عليه وسلم، لما تلا فيهم آيات القرآن معجزة

نبوته وآية رسالته، وإنه بشر مثلهم، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق" [٢] .

وقد كان أستاذها في مرحلة التكوين هذه والدها، ثم تلاه فيما بعد الأستاذ أمين الخولى الذي ظل فى ضميرها ووجدانها حتى نهاية حياتها، فتزوجته وأنجبت منه ، تقول عن هذه المرحلة : " مع الكتاب المعجز عشت عمري كله، وفى المدرسة القرآنية كانت تلمذتى الطويلة التي تولاها أبى فى مراحلها الأولى، وإليها انتهى تخصصى فى الدراسة العليا التى وجهني إليها أستاذى الإمام "أمين الخولى"، وظل لمدي ثلث قرن يقود خطاى على الطريق الشاق، ويحمينى من عثرة الرأى ومزالق التأويل وسطحية النظر..." [٣]. ولذلك أهدت تفسيرها البياني إليه، تقول: إلى من علَّمني هذا المنهج، أستاذنا الإمام: أمين الخولى فى ضمائرنا، وقلوبنا، وعقولنا.[٤]

جهودها

يثبت الوقوف على أعمال بنت الشاطئ التى تتمثل في أكثر من بحث قرآنى نفيس انتهجت فى كل منها منهجا متسما بالأصالة المستمدة من طول الدراسة وعمق المعايشة ودقة الملاحظة [٥] يثبت الوقوف مع هذا النتاج مالها من أمانة وتقوى وأصالة، وصحة المنهج والصبر على تكاليفه الصعبة، وعلم

---

٢ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٧م) التفسير البيانى للقران الكريم، مصر: دار المعارف، ط ١، ص ص ١٤ ـ ١٥ .

٣ ـ عبد الرحمن ، د. عائشة (١٩٧١م) الإعجاز البياني للقران الكريم، مصر. دار المعارف، ص١١ .

٤ ـ عبد الرحمن ، د. عائشة (١٩٧٧م) الإهداء للتفسير البيانى، جـ١، مصر: دار المعارف، ط ٥

٥ ـ عبد الرحمن، د. عائشة مقدمة "التفسير البياني للقرآن الكريم، ص ١٦ .

الإسلام والعربية: رواية ودراية، مع أسلوبها الفريد المميز، وبيانها العالى الملهم" [٦]. وقد انطلقت في هذا الطريق من ثقة ورثتها من صلتها بأهل العلم ، كما صدرت عن إيمان بدور حقيقي للمرأة، تقول عن ذلك :

" لو لا نسب لى فى الشيوخ عريق، لتهيبت التصدي لهذا الموضوع الدقيق الصعب، الذي توارد عليه أئمة من علماء السلف أفنوا أعمارهم فى خدمة القرآن الكريم، وقدموا إلى المكتبة الإسلامية ثمار جهودهم السخية الباذلة، ولولا ما أعلم من مكانة جليلة كانت للمرأة المسلمة فى تاريخنا لأحجمت عن التقدم إلى هذا الميدان الجليل، إشفاقا من أن ينكر مكانى فيه" [٧]

لقد قدمت إلى المكتبة القرآنية سبعة كتب، فى التفسير والإعجاز والإنسان وقضايا العصر، والشخصية الإسلامية والقرآن والتفسير العصرى بالإضافة إلى عدة كتب في الأدب والتراث وغير ذلك.

ومن أبرز كتبها

ـ "تراجم سيّدات بيت النبوة، رضى الله عنهنّ، بيروت: دار الكتاب العربي (١٩٨٤م) .

وكانت قد قدمت هذه التراجم فى خمسة كتب مستقلة. ، ومنها: أم النبى، ونساء النبى، وبنات النبى صلى الله عليه وسلم.

ـ أم النبى: وهو كتاب غير مسبوق بآخر فى موضوعه، فى المكتبة العربية

٦ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٨٤م) تراجم سيدات بيت النبوة، بيروت: دار الكتاب العربي، ص ١١ .

٧ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧١) الإعجاز البياني للقرآن الكريم، ص ص ١١ ـ ١٢ .

والإسلامية.

وقد ترجمت هذه الكتب إلى اللغات الأخرى كالفارسية والأردية والإندونيسية واليابانية.

- قيم جديدة للأدب العربى القديم والمعاصر.
- تراثنا ، بين الماضى والحاضر.
- الشاعرة العربية الأولى " [٨]
- سيرتها الشخصية التي جاءت بعنوان " على الجسر" .

كما ألقت محاضرات فى المؤتمرات الدولية والمواسم الثقافية حول موضوع القرآن ومنها:

- مشكلة الترادف اللغوي. فى ضوء التفسير البيانى للقرآن " مؤتمر المستشرقين الدولى بالهند نيو دلهى : يناير ١٩٦٢م.
- " منهج التفسير البيانى " الجزائر، أغسطس ١٩٦٤م.
- "إعجاز البيان القرآنى" ندوة علماء الإسلام بالمغرب الرباط: مايو ١٩٦٨م.
- " منهج الدراسة القرآنية " جامعة لاهور، باكستان : ١٩٦٩م.
- " من أسرار العربية فى البيان القرآنى " جامعة بيروت العربية آذار ١٩٧٢م

تشهد هذه الجهود الخاصة والمتنوعة لعائشة عبدالرحمن بتكوينها العلمى الأصيل الذي أهلها لأن تتبوأ مكانة عالية في الدراسات القرآنية المعاصرة؛ فإن آثارها العلمية والفكرية المنشورة فى كتب كثيرة والأبحاث العديدة، وإن

٨ - عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٧م) مقدمة التفسير البياني جـ ١، ط ٥ . ص ٩.

تجاربها في التدريس في جامعة عين شمس بمصر وجامعة القرويين بالمغرب العربي، وإن مصاحبتها للكتاب العزيز سدانة وقراءة وفهما وتفسيرا، كل أولئك هيأها لأن تكون الأستاذه الجليلة في تفسير القرآن" . [٩]

منهجها في التفسير: مصدره وعناصره

تزودت عائشة بما في تراثنا من جهود جليلة في التفسير؛ فقد كانت تؤمن بأنه لا بد لنا من التزود منها. ترصد طرفا من هذه الجهود التفسيرية، تقول: "ولا شك أن المكتبة القرآنية غنية بكتب التفسير، ومنها ما أظهر عناية خاصة بالتوجيه الإعرابي أو البلاغي، ومنها ما اختص بالنظر في مفرداته أو في مجازه أو في أقسامه أو في نظمه، من ذلك مثلا عناية الزمخشري بالبلاغة في تفسيره الكشاف، وعناية عبدالقاهر الجرجاني والقاضي الباقلاني، بالنظم في (الإعجاز ودلائله)... وغيرها مما لا أذكره هنا، على وجه الإحصاء وهم الذين بذلوا في خدمة القرآن جهودا جليلة، وتركوا آثارهم زادا لمن بعدهم"[١٠]

وقد أرادت عائشة عبدالرحمن أن تستفيد من زادهم وتعالجه بمنهج جديد. فقامت بدراسة النص القرآني لغة وبيانا، تطبيقا للمنهج الذي تلقته من أستاذها أمين الخولي، وهو منهج دقيق صارم الضوابط.

تذوقت بنت الشاطئ الأسلوب القرآني بمنهج جديدٍ كان مصدره الأول

٩ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٢م) الشخصية الإسلامية، بيروت: جامعة بيروت العربية، ص ص ٦ ـ ٧ .

١٠ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٧م) التفسير البياني للقرآن الكريم، جـ١، ط ١ ، ص ١٦ .

أستاذها (أمين الخولي) ، تقول: "وكان المنهج المتبع فى درس التفسير إلى نحو ربع قرن من الزمان تقليديا أثريا لايتجاوز فهم النص القرآنى على نحو ما كان يفعل المفسرون من قديم. حتى جاء شيخنا الإمام الأستاذ أمين الخولى فخرج به عن ذلك النمط التقليدي، وتناوله نصا لغويّا بيانيا على منهج أصلّه. وتلقاه عنه تلامذته وأنا منهم" [١١].

وقد طبق، بناء على دعوتها، بعض طلاب الدراسات العليا هذا المنهج تطبيقا ناجحا، فى موضوعات قرآنية اختاروها لرسائل الماجستير والدكتوراه، "ويظل المجال مفتوحا لجهد أجيال من العلماء تتعاقب على تدبر كتابنا فتدرك منه ما فاتها أن تدركه، وتستشرف لآفاق قصرت محاولتها عن مداها؛ لأنه يبقى من أسراره ما يفوق طاقة البشر[١٢]. كما دعت غيرهم من المتخصصين فى الدراسات القرآنية إلى هذا المجال، تقول:[١٣] " وسيرى المتخصصون فى الدراسة القرآنية بيانية أو فقهية مدى حاجتنا إلى فهم نصه قبل أي شئ آخر، و سيرون كذلك ما تكشف عنه المحاولة من شطط التأويل فى كثير من كتب التفسير واللغة والبلاغة، أو من بعد التكلف واعتساف الملحظ، وتحميل ألفاظ القرآن وعباراته ما يأباه القرآن نفسه حين نحتكم إليه". وسيبهرهم بلا ريب ما بهرنى من أسرار له بيانية إلي الحد الذى جلعنى أتساءل فى ارتياب : هل كنت قبلها، قد صح لى فقه لغتى العربية، وإدراك أسرار بيانها؟!

---

١١ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٧م) التفسير البيانى للقرآن الكريم، مصر: دار المعارف، ط١، ص ص ١٤ ـ ١٥ .

١٢ ـ المصدر السابق، جـ ٢ ، ص ٩ .

١٣ ـ المصدر السابق، جـ ١ ، ص ١٨ .

لقد حاولت أن تجعل من النص القرآني موضوعا لدراسة منهجية، كما يفعل مع نصوص أخرى لا سبيل إلى مقارنتها بالقرآن الكريم فى إعجازه البياني. تنتقد الاهتمام بالنصوص غير القرآنية في الدراسة الأدبية فى مقدمة تفسيرها البيانى، تقول: " ونحن فى الجامعة نترك هذا الكنز الغالى لدرس التفسير، وقلّ فينا من حاول أن ينقله إلى مجال الدراسات العربية التي قصرناها على دواوين الشعر ونثر مشهوري الكتّاب. وقد حرصت لمدى ربع قرن قضيته فى الجامعة، على أن أتتبع أمثلة الامتحان فى مواد اللغة والأدب، فى أقسام اللغة العربية بمختلف الكليات، فلم أجد من بينها سؤالاً فى البيان القرآنى فدلّ هذا على أن الفكرة لم تأخذ حظها الكافى من الوضوح والتمثل"[١٤]

وترجع دعوتها إلى إحياء دراسة البيان القرآني إلى يقينها فيما يمكن أن يكشفه لنا من دقة العربية في توظيفها للألفاظ، تقول: " وإذ نضع معاجم العربية وكتب التفسير فى خدمة هذا المنهج، فإننا نحاول أن ندرك حس العربية للألفاظ التى نتدبرها من النص القرآنى، عن طريق لمح الدلالة المشتركة فى شتى وجوه استعمالها لكل لفظ، فنقدر أن لهذا القرآن معجمه الخاص وبيانه المعجز، فنقول إن هذه الصيغة أو الدلالة قرآنية، ثم لا يعترض علينا بأن العربية تعرف صيغا ودلالات أخرى للكلمة " . [١٥]

أصل المنهج وقواعده

الأصل فى هذا المنهج هو التناول الموضوعي الذى يفرغ لدراسة الموضوع

١٤ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٧م) التفسير البياني للقرآن الكريم، جـ ١، ص ص ١٣ ـ ١٤

١٥ ـ المصدرس السابق، جـ ٢، ص ص ٧ ـ ٨ .

الواحد فيه، فيجمع كل ما فى القرآن منه، ويهتدى بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذاك، وهو منهج يختلف عن الطريقة المعروفة فى تفسير القرآن سورة سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية فيه، مقتطعا من سياقه العام فى القرآن كله توضح منهجها بقولها: "لا يجيز لنا أن نفسر حرفًا أو لفظا قرآنيا، دون استقراء لمواضع وروده فى المصحف كله؛ ولا يتناول موضوعا قرآنيا أو ظاهرة من الظواهر الأسلوبية دون استيعاب لنظائرها فيه وتدبر سياقها الخاص فى الآية والسورة، وسياقها العام فى الكتاب المحكم"[١٦]

ويعنى ذلك أن قواعد هذا المنهج تتمثل في استقراء النظائر، وتدبر السياق الخاص للآية والسورة، ومراعاة السياق القرآني العام. وقد ذكرت تفصيلاً أكثر من هذا لقواعد المنهج رتبتها بحسب ما تتعلق به القواعد. وذلك على النحو التالى:

أولاً : استقراء النظائر

ويكون بالتناول الموضوعي لما يراد فهمه من كتاب الإسلام، ويبدأ بجمع كل ما في الكتاب المحكم من سور وآيات في الموضوع المدروس. ويمثل استقراء النظائر تطبيقها لقول السلف الصالح: "القرآن يفسر بعضه بعضا".

ثانيا : دراسة هذه النظائر من خلال دراسة :

١ ـ ما حول النص.

٢ ـ النص نفسه في أمور، هى: **أ ـ وظيفة الحرف ب ـ دلالات الألفاظ.**

١٦ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٢م) من أسرار العربية في البيان القرآني، بيروت: جامعة بيروت العربية، ص ٩ .

ج ـ سر التعبير.

أولاً : استقراء النظائر

يمكننا أن نعرض بعض النماذج التي تكشف عن تطبيقها لقاعدة استقراء النظائر من خلال ما قالته عن مسألة زيادة الباء في خبر (ما) و(ليس).

قامت بنت الشاطئ باستقراء تام لزيادة الباء في خبر ليس وما في القرآن لتثبت رأيها الذي تقرر فيه، على خلاف جمهور النحويين، أنها أصلية غير زائدة للتأكيد كما يقولون، تقول عنها: "وقد جاء بها ابن هشام في مغنى اللبيب مع خمسة مواضع أخرى لزيادة الباء، وأدرجها جميعها تحت حكم عام هو "معنى التأكيد المستفاد من الباء الزائدة".[١٧] ولكن استقراء كل ما في القرآن من خبر (ما) و (ليس)، يهدى إلى ما غاب عنها من سر هذه الباء المقول بزيادتها.

ـ ففى خبر (ما) النافية يطرد الاستغناء عنها في القرآن كله حيثما جاءت متلوة بـ (كان)، فينصب الخبر صريحاً، وينصب ما عطف عليه، كما في الآيات التالية:

[وما كانوا مهتدين]. البقرة ١٧ .

[ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا]. آل عمران ٦٧ .

[والله ربِّنا ما كُنّا مشركين] . الأنعام ٢٣ .

ـ أما حين يكون الخبر لـ (ما)، غير متلوة بـ (كان)، فإن الباء تلزمه في كل

---

١٧ ـ ابن هشام، مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، بيروت: دار الفكر، ط ٥ ١٩٧٩م ، ص ١٤٤ ـ ١٥١ .

مواضعه، باستثناء بضع آيات لها سياقها الخاص:

[وما الله بغافلٍ عما تعملون]. البقرة ٧٤ .

[وما أنت عليهم بوكيل]. الأنعام ١٠٧ .

[وما هم بخارجين من النار]. البقرة ١٦٧ .

نحس في كل الآيات التي اقترن فيها خبر (ما) بالباء أن المقام مقام جحد وإنكار تقديراً لهذا المنفى.

أغنى عن الباء في آيتي يوسف والمجادلة تقرير النفى المستفاد من أسلوب القصر بعده:

[ما هذا بشر، إن هذا إلاّ مَلَك كريم]. يوسف ٣١ .

[ما هن أمّهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم]. المجادلة. ٢ .

كما أغنى عن الباء في خبر (ما كان) أن النفى بهذا الأسلوب، يفيد بطبيعته الجحد والإنكار، مثلما يفيده في الفعل: ما كان ليفعل.[١٨]

وهكذا أحصت عائشة مواضع مجيء الباء في خبر (ليس) فكانت في ثلاثة وعشرين موضعاً، وذكرت بأن مجيئها مطرد في هذه الآيات، وهذا في مقابل آيات ثلاث جاء فيها خبر (ليس) غير مقترن (بالباء)، وهذه الآيات هي:

[ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا].النساء ٩٤ .

[ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم]. هود ٨ .

[ويقول الذين كفروا لستَ مرسلا] . الرعد.

وهذه المواضع لم يقترن فيها الباء بخبر (ليس)؛ لأن المقام مستغن عن تقرير النفى كما في سورة هود.

---

١٨ . عبد الرحمن، د. عائشة، (١٩٧٢م) من أسرار العربية في البيان القرآني. ص ص ١٨ - ٢٣ .

أما إذا كان الخبر منفيًا بـ (ليس) في الجمل الخبرية، واقترن الخبر بالباء، فإن هذه الباء تفيد النفى بالجحد والإنكار، وقد يأتي بعد النفى الفعل (كان) وفي هذه لا يقترن الخبر بالباء؛ وذلك لأن النفى بهذا الأسلوب يفيد الجحد أصالة.

أما الجمل الاستفهامية فيطرد فيها اقتران خبر ليس بالباء، وبها يخرج الاستفهام إلى إثبات حاسم وتقرير باتٍّ كقولك:

(أليس الله بقادرٍ).

والإجابة تكون بـ (بلى) وفي هذا إثبات وتقرير لهذا الأمر. [١٩]

ولا يخفى من استعراض هذه النظائر ما تمثله من جهد ضخم، كما لا يخفى، كذلك، ما يمكن أن تقدمه من فوائد لغوية ومسائل بلاغية. لقد حرصت عائشة عبدالرحمن على تطبيق استقراء النظائر لتخلص إلى فهم النص القرآنى فهما مستشفًا روح العربية ومزاجها مستأنفة فى كل لفظ، بل فى كل حركة ونبرة، بأسلوب القرآن نفسه؛ إذ عكفت على دراسة " الإعجاز البياني للقرآن" مدة طويلة، فهديت إلي أسرار للعربية حجبت عنا طويلا، لكثرة ما اختلطت الدلالة القرآنية للكلمة، بالدلالات المعجمية، ولطول ما احتكمت قواعد الصنعة الإعرابية والمنطق البلاغي المدرسي، فى فهمنا للنص الموثق الموجز يمنحنا ذوق العربية [٢٠] .

---

١٩ ـ عباس ، د. فضل وعباس، د. سناء (١٩٩١م) إعجاز القرآن، ص ص ١٩٣، ١٩٤ .

٢٠ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٢م) من أسرار العربية في البيان القرآنى ص ص ١١ ـ

ثانيا : دراسة هذه النظائر من خلال دراسة

١ ـ فهم المقام أو السياق أو ما تسميه هى **بما حول النص:**

ترتب الآيات فيه وفق نزولها لمعرفة ظروف الزمان والمكان، كما يستأنس بالمرويات في أسباب النزول من حيث هى قرائن لابست نزول الآية، ونقدر معه أن السببية فيها ليست بمعنى العلية التى لولاها ما نزلت الآية، وأن العبرة في كل حال، بعموم اللفظ المفهوم من صريح نصها، إلا أن يتعين الاعتبار بخصوص السبب الذى نزلت فيه بدليل من صريح النص أو بقرينة بينة.

٢ ـ فهم المقال أو النص نفسه، وتعرض تحته فهم أمرين، هما:

أ ـ فهم وظيفة الحرف

تعتمد بنت الشاطئ في الحقيقة في معالجتها للحرف على فكرة النظم الذى يقوم بكل من الاسم والفعل والحرف على السواء؛ حيث ترى أنه ما من حرف في القرآن الكريم تأوّلوه زائداً أو قدّروه محذوفاً أو فسّروه بحرف آخر؛ يتحدى بسرّه البيانى كل محاولة لتأويله على غير الوجه الذى جاء به في البيان إلا وهو المعجز". [٢١]

ب ـ فهم دلالات الألفاظ

نقدر أن العربية هي لغة القرآن، فنلتمس الدلالة اللغوية الأصلية التي تعطينا حس العربية للمادة في مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية. ثم نخلص للمح الدلالة القرآنية باستقراء كل ما فى القرآن من صيغ اللفظ، وتدبر

٢١ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧١م) الإعجاز البياني، ص ١٢٥ .

سياقها الخاص في الآية والسورة، وسياقها العام في القرآن كله.

جـ ـ فهم أسرار التعبير

تجتهد عائشة في هذا الصدد في الاستفادة مما قرره علماء اللغة والبلاغة في تفسير التعبيرات القرآنية المختلفة مع إيمانها بقدسية هذه النصوص القرآنية التى تحكم القواعد اللغوية والبلاغية، ولا تحكمها هذه القواعد، تقول: نحتكم إلى سياق النص في الكتاب المحكم ملتزمين ما يحتمله نصاً وروحاً. ونعرض عليه أقوال المفسرين فنقبل منها ما يقبله النص، ونتحاشى ما أُقحم على كتب التفسير من مدسوس الإسرائيليات وشوائب الأهواء المذهبية، وبدع التأويل.

كما نحتكم إلى الكتاب العربي المبين المحكم في التوجيه الإعرابي والأسرار البيانية، نعرض عليه قواعد النحويين والبلاغيين ولا نعرضه عليها، ولا نأخذ فيه بتأويل لعلماء السلف على صريح نصه وسياقه، لتسوية قواعد الصنعة النحوية وضوابط علوم البلاغة؛ إذ القرآن هو الذروة العليا في نقاء أصالته وإعجاز بيانه، وإنه ليس بموضع ضرورة كالشواهد الشعرية، ليجوز عليه ما يجوز عليها من تأويل".[٢٢]

(أ) سر الحرف

وقفت بنت الشاطئ مع الحرف تبين قيمته ووظيفته في النص القرآني، وذلك من خلال مناقشتها لعدة مسائل متصلة به تتمثل في القول بالزيادة، والحذف ونيابة بعض الحروف عن بعض، وفواتح السور.

---

٢٢ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٧م) التفسير البياني، ص ١١ .

ترى في جوانب معالجة الحرف في النص القرآني أنه ينبغي أن: "نلقن الطلاب أن الحرف لا يؤدي معناه بغيره، فهو دون الفعل والاسم. ولكن لهذا الحرف نصيبه الأوفى، وحظه الأوفر في البيان القرآني، سواء كان ذلك من حيث حذفه وذكره، أم من حيث وضع حرف مكان حرف آخر"[٢٣]

وسوف نعرض لجوانب دراستها للحرف فيما يلي:

أ ـ الزيادة

تعد مسألة القول بالزيادة في بعض الحروف في النص القرآني من المسائل التى شغلت اهتمام المعنيين بالقرآن من مفسرين ونحويين وبلاغيين وقد لخصها الزركشي الذي ينقل عن الطرطوسي يقول:[٢٤]

"الدهماء من العلماء والفقهاء والمفسرين على إثبات الصلات (الزوائد) في القرآن، وقد وُجد ذلك على وجه لا يسع إنكاره".

كما يشير إليها بعض المعاصرين، يقول: [٢٥]

"لا علينا أن نقول: إن في القرآن زيادة كما أن في اللغة زيادة، ويؤيدها هذا الذى يقوله جمهور العلماء أن القرآن إنما أنزل بلسان عربي مبين، وقد تحدى الله العرب أن تأتي بشيء من مثله، وإنما يكون التحدى على بابه إذا كان بين النظائر والأشباه".

---

٢٣ ـ عباس، د. فضل وعباس د. سناء (١٩٩١م) ، إعجاز القرآن الكريم، ص ١٩٣ .

٢٤ ـ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، بيروت، : دار الكتب العلمية، ط ١ ١٩٨٨م، جـ ١، ص ٧٢) .

٢٥ ـ ناصف، على النجدى، مع القرآن الكريم، مصر: دار المعارف، ص ص ٩٣ ـ ٩٥).

وهو يرى ذلك بناءً على أن الزيادة في القرآن وفصيح البيان ليست لغواً باطلاً، ولا عبثاً فارغاً، ولكنها كانت تُراد قصداً لمطلب كريم من مطالب البلاغة وفصاحة التعبير".

ويفيد عبد الله دراز هذا الأمر في كتابه "النبأ العظيم"، يقول: "ليس فيه كلمة إلاّ هي مفتاح" لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلاّ جاء لمعنى، فخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسراره البيانية على ضوء هذا المصباح، فإن عُمى عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف فإياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون؟ ولكن قُل قولاً سديداً هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف. قُل: الله أعلم بأسرار كلامه ولا علم لنا إلاّ بتعليمه". (٢٦)

وهذا ما يؤيده مصطفى صادق الرافعي في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، يقول:

"إن سر إعجاز القرآن في النظم، وجهات النظم ثلاث، في الحروف والكلمات والجمل. فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة. وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازاً أبديًا.

ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم فيه بأنه كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجرى مجرى الحشو والاعتراض". (٢٧)

---

٢٦ ـ دراز، د. محمد عبد الله (١٩٦٠م)، النبأ العظيم، مصر: مطبعة السعادة، ، ص ١٢٦ .

٢٧ ـ (الرافعي، مصطفى صادق (١٩٦٥م). إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، راجعه: محمد سعيد العريان، مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ط ٨ ، ص ٢٤٠ ـ ٢٥٥) .

وقد سجلت عائشة ملاحظات جديدة عن الحروف التي عدّها بعض المفسرين زائدة، مثل حرف الباء في كثير من الآيات الكريمة، وانتهت إلى إثبات وظيفة أصيلة لها، وألاّ وجه للحكم بأنها زائدة. وقد رفضت تبعاً لذلك التأويل بزيادة حرف بذاته في آية بعينها في مثل قوله تعالى [وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين]. فعارضت الذين افترضوا في تفسيرهم وجود (لا) محذوفة قبل الفعل).[٢٨]

ب ـ الحذف

ترى بنت الشاطئ أن القول بحذف الحرف لا يليق بمقام القرآن الكريم؛ إذ ليس كالشعر الذي تقوم فيه الضرورات. نأخذ مثلاً آية تشريع أحكام الصيام من سورة البقرة.

قال تعالى: [يا أيها الذين امنوا كتب عليكم الصيامُ كما كُتِب علي الذين من قبلكم لعلّكم تتقون. أيّاماً معدودات، فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ فعدّة من أيّام أخر، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين].(البقرة ١٨٣، ١٨٤) .

اختلف المفسرون في تأويل (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) منهم من قال: إنها منسوخة بالآية بعدها. والقول بنسخها هو أول ما أورده الإمام الطبرى في تفسيره. ونقله الزمخشري في (الكشاف) وأبو حيان في البحر المحيط، وقال: "وهذا قول أكثر المفسرين".[٢٩]

---

٢٨ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٢م) من أسرار العربية في البيان القرآني، ص ٦ .

٢٩ ـ الأندلسي، أبو حيان، تفسير البحر المحيط، جـ٢ ، بيروت: دار الفكر، ط ٢، ص ٣٦ .

كما روى الألوسي: "لما نزلت هذه الآية [وعلى الذين يطيقونه] كان من شاء منا صام، ومن شاء أفطر ويفتدى فعل ذلك حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها [فمن شهد منكم الشهر فليصمه]".(٣٠)

والذين قالوا بعدم النسخ ذهبوا في تأويلها مذاهب شتى:

منهم من صرح بأنها على تقدير حذف (لا) وهي مرادة، ونُقل فيه من ابن عباس (لا رخصة إلا للذي لا يطيق الصوم) قال أبو حيان في البحر: "وتقدير (لا) خطأ، لأنه مكان إثبات، ألا ترى أن الذى يتبادر إليه الفهم هو أن الفعل مثبت.

وآخرون منهم لم يصرحوا بتقدير (لا) محذوفة وإن كانوا لا يتأوّلونها بما يعطل الحكم مع الإثبات، على تقدير: "وعلى الذين كانوا يطيقونه، في حال الشباب فعجزوا . وأن الرخصة ثبتت للذين لا يطيقونه"، وهو قول البغوي أو على تقدير: "من يدركه رمضان وعليه صوم قضاء من رمضان المتقدم، فقد كان يطيق في تلك المدة، فعليه الفدية" .

أما بنت الشاطئ فهى تقف في مقابل هذه الآراء وترفض هذه التأويلات كلها، تقول:

"وآن لنا أن نتدبر الآية، ونستبعد تماماً أن تكون (لا) حذفت وهي مرادة فليس القرآن بموضع ضرورة كالشعر يسوغ فيه مثل هذا التأويل، والآية من آيات التشريع والأحكام، وغير مُتَصَوّر أن يأتي صريح نصها على الإيجاب

٣٠ ـ الألوسي، السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم جـ ٢، إيران: انتشارات جهان تهران، ص ٥١ .

والثبوت، فنتأولها على نقيضه من النفي والحذف".

وواضح أن الذين تأوّلوا الآية على تقدير حذف (لا) وهي مرادة، فهموا "يطيقونه" بمعنى "يستطيعونه". وليست الكلمتان سواء. في الاستطاعة: حسّ الطواعية والمواتاة والقدرة. وأي مسلم يستطيع الصوم فالتكليف قائم، لا تقبل عنه فدية ولا قضاء. أما الطاقة: فهي في العربية أقصى الجهد ونهاية الاحتمال. وحين يقول العربي: هل تطيق هذا؟ لا يقولها إلاّ وهو يقدر أن هذا مما لا يحتمل ولا يستطاع.

وبهذه الدلالة على أقصى الجهد ونهاية الاحتمال، نُقل لفظ الطاقة إلى المصطلح العلمي في الطبيعة والرياضيات. [٣١]

وقد ورد هذا التفريق عند محمد رشيد رضا في تفسيره "المنار"، يقول:

"فسر بعضهم الوسع بالطاقة وهو غلط لأن الوسع ضد الضيق وهو ما تتسع له القدرة ولا يبلغ استغراقها، وأما الطاقة فهي آخر درجات القدرة فليس بعدها إلا العجز المطلق كأنها آخر طاقة". [٣٢]

وقد استقرأت الباحثة الاستعمال القرآني للكلمة، فوجدت استعمالها اسماً وفعلاً قد جاء ثلاث مرات في آيات البقرة، وهي:

قال تعالى: [قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده] البقرة ٢٤٩

[ربَّنا ولا تُحمِّلنا مالا طاقة لنا به] البقرة ٢٨٦.

---

٣١ - عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٢م)، من أسرار العربية في البيان القرآني، ص ٢٨.

٣٢ - رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، جـ ٢، بيروت: دار المعرفة، ط ٢، ص ٤١٢.

وبهما استأنست في فهم الثالثة، وهي:

[وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين]. البقرة ١٨٤ .

تقول: "فندرك أن الأمر في احتمال الصوم، إذا جاوز الطاقة إلى ما لا يطاق، سقط التكليف لأنه لا تكليف شرعا بما لا يطاق، والله لا يكلف نفساً إلاّ وسعها. فالحكم بالفدية في الآية غير وارد على من لا يطيقونه، بسقوط التكليف عمن لا يطيق . كما أنه غير متعلق بمن يستطيعونه؛ إذ التكليف مع الاستطاعة قائم، وإنما الفدية تيسير على من يطيقونه بمعنى من يستنفد الصوم طاقتهم ويبلغ أقصى احتمالهم، فليسوا بحيث يستطيعون القضاء عدة من أيام أخر كالمريض لا يرجى شفاؤه، والشيخ الهرم.

وتبقى الآية على صريح نصها: "وعلى الذين يطيقونه، دون تأويلها على حذف (لا) النافية، وهي مرادة ."[٣٣]

وهذا في الحقيقة ما نجده في تفسير المنار، قال الأستاذ الإمام:

"الإطاقة" أدنى درجات المكنة والقدرة على الشيء.

فلا تقول العرب، أطاق الشيء إلا إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة. فالمراد بالذين يطيقونه هنا الشيوخ الضعفاء والزمنى الذين لا يرجى برء أمراضهم ونحوهم كالفعلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة كاستخراج الفحم الحجري من مناجمه ومنهم المجرمون الذين يحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة إذا كان الصيام

٣٣ ـ عبد الرحمن، د. عائشة، من أسرار العربية في البيان القرآني، ص ص ٣٠ ـ ٣١ .

يشق عليهم بالفعل وكانوا يملكون الفدية، أقول وهو مشتق من طاقة الحبل أو الخيط أو الفتلة الواحدة من فتله التي يبرم بعضها على بعض وتسمى القوة، أو من الطوق"[٣٤]، وعليه قول الراغب: "الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء فقوله [ولا تحملنا مالا طاقة لنا به] أي ما يصعب عليها مزولته، وليس معناه ولا تحملنا ما لا قدرة لنا به..." [٣٥]

وقوله [وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين] ظاهره يقتضى أن المطيق له يلزمه فدية أفطر أو لم يفطر، لكن أجمعوا على أنه لا يلزمه إلا مع شرط آخر، وهو الإفطار.

و (قال شيخنا) ذهب كثيرون إلى أن الآية منسوخة؛ إذ فهموا أن الإطاقة بمعنى الاستطاعة وقدر بعض المفسرين كالجلال حرف نفي فقال: [وعلى الذين لا يطيقونه فدية]. ليوافق مذهبه والآية موافقة له من غير حاجة إلى جعل الإثبات نفياً كما قلنا آنفا، وقال بعضهم إن الهمزة في الإطاقة للسلب فمعناها الذين لا يطيقونه من غير تقدير حرف نفى . وهو قول تقول، ويظهر بإرادة سلب الطاقة أي القوة به لا قبله . والقاعدة أنه لا يحكم بالنسخ إذا أمكن حمل القول على الأحكام. [٣٦]

جـ نيابة الحروف

يقول بعض النحويين بنيابة بعض الحروف عن بعض في العربية التي نزل

---

٣٤ ـ رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج٢، ص ١٥٦ .

٣٥ ـ الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلى، دار الكاتب الغربي ١٩٧٢م ص ٣٢٠ .

٣٦ ـ رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، جـ ٢، ص ١٥٧ .

بها القرآن الكريم. وقد رفض بعض اللغويين ذلك، يقول (أبو هلال العسكري):

"وذلك أن الحروف إذا تعاقبت خرجت عن حقائقها ووقع كل واحد منها بمعنى الآخر فأوجب ذلك أن يكون لفظان مختلفان لهما معنى واحد فأبى المحققون أن يقولوا بذلك، وقال به من لا يتحقق المعاني".[٣٧]

وقد عقب ابن هشام على قولهم (إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض)، قال: "ولو صح قولهم لجاز أن يقال: مررتُ في زيد ودخلت من عمر، وكتبت إلى قلم".

وقد وقفت الباحثة أمام هذه الظاهرة فأخذت موقف الرافضين للترادف، تقول: " "نحتكم فيما اختلفوا فيه إلى البيان الأعلى، فيأبى أن نتأول حرفاً منه بآخر يمكن أن ينوب عنه، ونقدم مثلاً حرف (عن) في آية الماعون: [فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون]. نستبعد قول من تأولوا السهو عن الصلاة في الآية، بأنه سهو في الصلاة. فليس السهو فيها بخطيئة أو منكر، وكل مؤمن عرضة لأن يسهو في صلاته فينجبر سهوه في الصلاة بسجود السهو أو بالسنن والنوافل على ما هو مقرر في باب الصلاة من أحكام العبادات. [٣٨]

كما لا نطمئن في تفسير السهو عن الصلاة، إلى ما اطمأن إليه الإمام الطبرى في قوله: (وأَوْلى الأقوال عندي بالصواب، أنهم ساهون لاهون يتغافلون عنها، وفي اللهو عنها والتشاغل بغيرها تضييعها أحياناً وتضييع

٣٧ ـ العسكري، أبو هلال، الفروق في اللغة، كوئتة: مكتبة إسلامية ، ١٤٠٤هـ، ص ١٦ .
٣٨ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧١م) الإعجاز البياني، ص ١٨٨ .

وقتها أحياناً أخرى فصح بذلك قول من قال: عنى بذلك ترك وقتها، وقول من قال: عنى تركها".[٣٩]

وقريب من هذا قول الزمخشري في (الكشاف):

"أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والسلف، ولكن ينقرونها نقراً من غير خشوع وإخبات، ولا اجتناب لما يُكره فيها من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات، لا يدرى الواحد منهم كم انصرف، ولا ما قرأ من السور؟".[٤٠]

"ولكن حين نفهم الآية، في سياقها مع الآيات قبلها، ومع الآية التالية لها وقد ارتبطت بها ارتباط الصلة بالموصول (الذين هم يراءون) يعطينا حرف (عن) سره، فترى النذير بالويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، غافلون عن كونها قياماً بين يدى الخالق يكبح غرور الإنسان وينهاه عن الفحشاء والمنكر، ويأخذه بالخشوع والتواضع أمام جلال خالقه وعظمته وقدرته، ويرهف ضميره فيتقى الله في اليتيم والمسكين، مؤدياً حقهما في التواصي بالمرحمة.

ليس السهو عن الصلاة إذن سهواً فيها، ولا تركا لها أو ترك وقتها، أو العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب، وإنما هو سهو عن حكمتها ومراءاة بها، قد يؤديها بعضهم في أوقاتها، ويتظاهرون بالخشوع فيها والإخبات رئاء الناس وقصداً إلى منفعة. وصلاة الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام

٣٩ ـ الطبري، ابن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، جـ٣٠، بيروت: دار المعرفة، ط ١ ، ص ٢٠٢ .

٤٠ ـ الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، جـ ٤ ، بيروت: دار المعرفة، ص ٢٨٩ .

المسكين، لا يمكن أن تصدر عن قلب خاشع وضمير مؤمن، وحين لا تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر، فذلك هو السهو عنها، تعود به طقوساً شكلية ونفاقاً من المصلين يراءون به الناس"[٤١]

ترى بنت الشاطئ أن كل حرف في كتاب الله تعالى، لا ينبغى أن نقول إنه جاء عوضاً عن غيره، فعن في قوله تعالى [عن صلاتهم ساهون] ليس المقصود بها أن تكون بمعنى (في) أي: في صلاتهم.

ويرى بعض الدارسين أنها قد استفادت من المفسرين في هذا الأمر، يقول:

"وقد نجد هذا فيما ذكره المحدث الخطابي بسنده إلى مالك بن دينار، قال: جمعنا الحسن ، يعنى البصرى، رحمهم الله جميعا ، من أجل عرض المصاحف، وكان في مجلس أبي العالية، سأله أحدنا عن قوله تعالى [فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون]، فقال أبا العالية هو الذى يسهو في صلاته، فقال الحسن: لا، يا أبا العالية، إن الله يقول [عن صلاتهم] ، ولم يقل في صلاتهم) ـ فنرى أن الحسن البصرى ـ رحمه الله و رضى الله عنه ـ أبي أن يستبدل الحرف القرآني بغيره".[٤٢]

على أننا في الحقيقة نجد لها تطبيقات أكثر ونماذج أخرى تقوم على هذه الفكرة بحيث لا نرى هذا المثال الذي وافقت فيه الخطابي أكثر من اتفاق عرضى في مثال واحد فحسب نقلته هى والخطابى عن موقف الحسن البصرى. وقد جاءت من الأمثلة بما يجعل لها فضلا في تطبيق الفكرة القائلة بعدم نيابة الحروف بعضها عن بعض.

٤١ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧١م)، الإعجاز البياني، ص ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

٤٢ ـ (عباس، د. فضل وعباس، د. سناء (١٩٩١) إعجاز القرآن، ص ص ١٩٣ ، ١٩٤) .

د ـ فواتح السور

عالجت بنت الشاطئ سر الحرف الوارد في فواتح السور في ضوء ما قدّمه المفسرون الأوائل، تقول: وأكثر السلف على أنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه، وقيل هى علامات لكتاب الوحي، وقيل هي رموز أسماء، أو هى حروف أعداد على حساب أبي جاد.

وهى تشير في كتاباتها إلى ما قدمه المفسرون الأوائل بهذا الصدد؛ فهى تفيد مثلا أنه: قد تنبه السلف إلى أن مجموع حروف الفواتح، بغير المكرر منها، أربعة عشر حرفا، هي نصف الحروف العربية.

كما لفت بعضهم النظر إلى أنها نصف الحروف الهجائية على أي وجه من الوجوه . ففيها نصف الحروف المهموسة، والمجهورة، وحروف الحلق، والحروف غير الحلقية، والشديدة والرخوة، والمطبقة والمنفتحة، والمستعلية والمنخفضة.

وقد التفت الفخر الرازى إلى كون هذه الفواتح متلوة بذكر القرآن، أو الكتاب، والذكر الحكيم فى معظم الأحوال، مثل :

(الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه)

(ص . والقرآن ذى الذكر)

وكان الحافظ ابن كثير أدق ملحظا وأصح منهجا حين وصل إلي أن " كل سورة افتتحت بالحروف، فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان لإعجازه وهذا معلوم بالاستقراء. وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة.

فأعطى هذا الملحظ الاستقرائي الدقيق وجه المذهب الذي ذهب إليه من قالوا: إنها بيان لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع

أنه مركب من حروف لغتهم التى يتكلمون بها . [٤٣]

سر الكلمة

وقفت بنت الشاطئ مع جانبى الدلالة والشكل اللذين يمثلان وجهى الكلمة، وذلك حين ناقشت الدلالة المعجمية للألفاظ القرآنية من خلال رفضها للترادف في اللفظ القرآني؛ حيث ترى فروقا دلالية بين الألفاظ التى تبدو مترادفة في الظاهر. كما تتجلى معالجتها لجانب الشكل في اللفظ من خلال حديثها عن الجرس في الفواصل القرآنية. وفيما يلي تفصيل عن جانبى الدلالة والشكل من خلال قضيتى الفروق الدلالية والجرس.

أ ـ الفروق الدلالية

تعد الكلمة الوحدة الدلالية الأساسية في اللغة؛ ولذلك يلزم المهتم بدراسة الجانب الدلالي للكلمة أن يوليها عناية خاصة؛ وهذا ما يفسر وجود مساحةٍ واسعةٍ خاصة بدلالة الكلمة في تراثنا اللغوى العربي الذى اتخذ موقفين بصدد هذه الدلالة: حيث ذهب فريق إلى القول بوجود الترادف في اللغة، وذهب فريق اخر إلى القول بالتوارد الذى يثبت للكلمات التى تتصل بموضوع واحد فروقا بينها.

ويعكس القول بالفروق اللغوية وعدم الترادف وجهة نظر تتلخص في أن الترادف في اللغة ليست له فائدة، وليس من الحكمة بحال، وقد أخذ بوجهة النظر هذه كل من "أبي منصور الثعالبى" في (فقه اللغة) وأبي هلال العسكرى في (الفروق اللغوية) و "أحمد بن فارس" في (الصاحبى في فقه اللغة)، كما

٤٣ ـ عبد الرحمن عائشة (١٩٧٢م) من أسرار العربية في البيان القرآني، ص ص ١٣ ـ ١٦ .

يصرح لنا بوجهة النظر هذه "أبو هلال العسكرى"، يقول في كتابه تحت عنوان (باب في الإبانة عن كون اختلاف العبارات والأسماء موجباً لاختلاف المعانى في كل لغة).

"الشاهد على أن اختلاف العبارات، والأسماء يوجب اختلاف المعانى أن الاسم كلمة تدل على معنى دلالة الإشارة وإذا أشير إلى الشيء مرة واجدة فعرف فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة، وواضع اللغة حكيم لا يأتي فيها بما لا يفيد فإن أشير منه في الثاني والثالث إلى خلاف ما أشير إليه في الأول كان ذلك صواباً فهذا يدل على أن كل اسمين "يجريان على معنى من المعانى وعين من الأعيان في لغة واحدة فإن كل واحد منهما يقتضى خلاف ما يقتضيه الآخر وإلا لكان الثاني فضلاً لا يحتاج إليه".[٤٤]

وتحاول وجهة النظر هذه أن تلتمس فروقاً بين الكلمات، كأن تجعل الألفاظ المتواردة على موضوع واحد حالات مختلفة لهذا الموضوع يقول الثعالبى في ذلك:

"إن كثيراً من الألفاظ التى تبدو مترادفة هي في الواقع غير مترادفة، بل يدل كل منها على حالة خاصة تختلف بعض الاختلاف على الحالة التى يدل عليها غيره، مثل: رمق، ولحظ، وحدج، وشفن، ورنا... وما إلى ذلك من الألفاظ التى تدل على النظر، فإن كلا منها يعبر عن حالة خاصة للنظر تختلف عن الحالات التى تدل عليها الألفاظ الأخرى، فرمق يدل على النظر بمجامع العين، ولحظ عن النظر من جانب العين، وحدجه معناه رماه ببصره مع حدة، وشفن يدل على نظر المتعجب الكاره، ورنا يفيد إدامة النظر في سكون وهلم جرا.[٤٥]

٤٤ ـ العسكرى، أبو هلال، الفروق في اللغة، ص ١٣ .

٤٥ ـ الثعالبى، محمد، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق سليمان سليم البواب، د.مشق دار الحكمة للطباعة والنشر، ١٩٨٤م، ص ١٧٤ .

كما يعكس القول بالترادف وجهة نظر تتلخص في فقدان الوصفية التى كانت سببا للفروق اللغوية في أول الأمر، أى أن وجهة النظر هذه تأخذ بمبدأ التطور اللغوى الذى ترى أنه أصاب جانب الدلالة فأسقط الفروق اللغوية التى كانت بين الألفاظ التى تقع على شئ واحد. كما يقول الزركشي في ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه:

"ولهذا وزعت بحسب المقامات، فلا يقوم مرادفها فيما استعمل فيه مقام الآخر. فعلى المفسر مراعاة الاستعمالات، والقطع بعدم الترادف ما أمكن؛ فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد، ولذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب؛ وإن اتفقوا على جوازه في الإفراد".[٤٦]

وكما يقول بعض المعاصرين عن هذه القضية: "إن الأسماء الكثيرة التي يذكرونها للشيء الواحد ليست جميعها في الواقع أسماء، بل معظمها صفات مستخدمة استخدام الأسماء. فكثير من الأسماء المترادفة كانت في الأصل نعوتا لأحوال المسمى الواحد، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج وتجردت مدلولات هذه النعوت مما كان بينها من فوارق وغلبت عليها الاسمية. فالخطار والباسل والأصيد ... من أسماء الأسد يدل كل منها في الأصل على وصف خاص مغاير لما يدل عليه الآخر. وكذلك ما يعد من أسماء السيف: كالمصمم والهندى والحسام والغصب والقاطع".[٤٧]

٤٦ ـ الزركشى، البرهان في علوم القرآن، جـ ٤، ص ٩٣ .

٤٧ـ وافي، د. علي عبد الوافى، فقه اللغة، القاهرة: دارنهضة مصرللطباعة والنشر، ص ١٧٤ .

كما يشير غيره إلى أن هذا هو ما عبر عنه بعض القدماء بقولهم فقدان الوصفية حين كان للسيف اسم واحد وله خمسون وصفاً لكل وصف دلالته المتميزة: فالهندي الذى عرف بأنه سيف حاد دقيق في صلبه مرونة وكان يصنع في بلاد الهند، واليمانى الذى كان يصنع في بلاد اليمن مقوس النصل بعض التقويس وله فرند ونقوش ... إلخ. (٤٨)

على أن بعض المعاصرين قد أثبت عدة عوامل أو أسباب أدت إلى توارد أكثر من لفظ لموضوع واحد تتمثل في اختلاف المستوى اللغوى، واختلاف الفترة الزمنية، وتعدد اللهجات، يقول في ذلك:

"إذا أردنا بالترادف" التطابق التام "الذى يسمح بالتبادل بين اللفظين في جميع السياقات دون أن يوجد فرق بين اللفظين في جميع أشكال المعنى (الأساسي والإضافي والأسلوبي والنفسي والإيحائى)، ونظرنا إلى اللفظين في داخل اللغة الواحدة، وفي مستوى لغوي واحد، وخلال فترة زمنية واحدة، وبين أبناء الجماعة اللغوية الواحدة، فالترادف غير موجود على الإطلاق.

أما إذا أردنا بالترادف التطابق في المعنى الأساسي دون سائر المعانى، أو اكتفينا بإمكانية التبادل بين اللفظين في بعض السياقات، أو نظرنا إلى اللفظين في لغتين مختلفتين أو في أكثر من فترة زمنية واحدة، أو أكثر من بيئة لغوية واحدة فالترادف موجود لا محالة".(٤٩)

---

٤٨ - أنيس، د. إبراهيم (١٩٨٠م) دلالة الألفاظ، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٤، ص٢١٢).

٤٩ - عمر، د. أحمد مختار (١٩٨٨م) علم الدلالة، مصر: عالم الكتب القاهرة، ط ٢ ، ص ٢٣٠ .

أما إذا عُدْنا إلى بنت الشاطئ فإننا نجدها تقدم تطبيقات واسعة جداً لإثبات الفروق اللغوية التى تقدم بين الألفاظ التى تقع على موضوع واحد. وهى ترى أن الحكم في إثبات الفروق اللغوية لا بد أن يعتمد على القرآن الذى يعد أقوى النصوص التى يستشهد بها في اللغة. تقول:

"من قديم شغلت قضية الترادف علماء العربية واختلفت مذاهبهم فيها. والبيان القرآني يجب أن يكون له القول الفصل فيما اختلفوا فيه حين يهدى إلى سرّ الكلمة لا تقوم مقامها كلمة سواها من الألفاظ المقول بترادفها . [٥٠] وفيما يلي النماذج المختلفة قدمتها لإثبات الفروق اللغوية بين الألفاظ التى يرى الآخرون أنها من قبيل الترادف فيها بعضها العلماء بالترادف.

الحلف والقسم الحلم والرؤيا الزوج والمرأة

حلف وقسم:

وردت الكلمتان في القرآن، وقلما تفرق بينهما المعاجم.

قال الدامغاني في قاموس القرآن: أقسم أي حلف. كقوله تعالى: [وأقسموا بالله جهد أيمانهم]، وهكذا قال الراغب في مفردات القرآن و (أقسم) حلف وأصله من القسامة. [٥١]

وهي أيمان تقسم على أولياء المقتول ثم صار اسماً لكل حلف". [٥٢]

---

٥٠ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧١م) الإعجاز البياني، ص ١٩٣ .

٥١ ـ الدامغاني، محمد، إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، بيروت: دار العلم للملايين، ط ٢ ١٩٧٧م، ص ٣٨٠ .

٥٢ ـ الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص٤١٨ .

ولكن بنت الشاطئ تفيد أن القرآن على أي حال، يمنع ترادف الحلف والقسم. تقول : "جاءت مادة حلف في ثلاثة عشر موضعاً، كلها بغير استثناء في الحلف باليمين. والفعل مسند إلى المنافقين في أحد عشر موضعاً منها:

[ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم]. (التوبة ٥٦).

ومعها آية القلم: [ولا تطع كل حلاّفٍ مهين].(القلم ١٠).

ومرة واحدة، جاء الفعل مسنداً إلى ضمير الذين آمنوا، فوجبت عليهم كفارة الحنث باليمين : [ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم]. (المائدة ٨٩).

أما القسم فيأتي في الأيمان الصادقة، ويوصف بالعظمة في قوله تعالى: [وإنه لقسم لو تعلمون عظيم] (آية الواقعة ٧٦).

ويأتي في موضع العبرة في قوله تعالى: [هل في ذلك قسم لذى حجر] (الفجر : ٥).

ويختص بحرمة الشهادة على الوصية، حيث لا يحل الحنث باليمين في آيتى المائدة (١٠٧ ، ١٠٨) . وكان أصحاب الجنة، في سورة القلم صادقين: [إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين ولا يستثنون]. (القلم ١٧ ، ١٨) . وليس المجرمون بكاذبين؛ إذ يقسمون يوم تقوم الساعة: [ما لبثوا غير ساعة]. (الروم ٥٥).

ويسند القسم في القرآن إلى الضالين، فيؤذن السياق أنهم أقسموا عن اقتناع منهم بالصدق، قبل أن ينكشف لهم أنهم كانوا على ضلال كما في آيات: [وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها...] . (الأنعام ١٠٩) . [وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى

الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا]. (فاطر ٤٣).

وفي آية المائدة التالية كان قسم المنافقين توكيداً ليمينهم، قبل أن ينكشف كذبهم للمؤمنين: [ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين]. (المائدة ٥٣).

وإن هذا الاستقراء، لا يهون أبداً أن نفسر القسم بالحلف، والبيان القرآني يلفت إلى فرق دقيق بينهما.

اليمين عامة، فما صدق منها، حقيقة أو توهماً أو إبهاماً، فهو قسم، وما كذب منها فهو حلف، حنثاً باليمين، على ما اطرد استعماله القرآني، لم يتخلف. (٥٣)

ـ الحلم والرؤيا

تتبعت بنت الشاطئ كل لفظ من هذين اللفظين" في السياق القرآنى، وانتهت إلى أن" الأحلام" فى كل موطن جاءت فيه دلت علي الأضغاث المشوشة، وليس الأمر كذلك بالنسبة للفظ " الرؤيا" التي اقترنت بمواطن الصدق والتميز والوضوح وصفاء المرئي.

فالحلم والرؤيا كلتاهما في القرآن، والمعاجم تفسر إحداهما بالأخرى، لكنهما فى البيان الأعلى لا تترادفان.

جاءت " الأحلام" فى القرآن ثلاث مرات، وفي كل موضع بصيغة الجمع، دلالة على الخلط الذي لا يتميز فيه حلم عن آخر. كقوله تعالى فى سورة

٥٣ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٧م) التفسير البياني، جـ ١، ص ص ١٦٦ ـ ١٦٨ .

يوسف (آية ٤٤). (قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين).

أما الرؤيا فقد جاءت فى القرآن سبع مرات كلها فى الرؤيا الصادقة، ولم يستعملها القرآن إلاّ بصيغة المفرد دلالة على التميز والوضوح ومنها رؤيا إبراهيم فى آيتى الصافات (١٠٤، ١٠٥).

(وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدّقت الرّؤيا إناّ كذلك نجزى المحسنين) ورؤيا يوسف عليه السلام إذ يقول له أبوه:

(يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) (يوسف : ٥) ورؤيا محمد، عليه الصلاة والسلام، فى الفتح:

(لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحق لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) . (الفتح : ٢٧)[٥٤]

الزوج والمرأة

تنكر بنت الشاطئ كون هذين اللفظين مترادفين، وترى أنه قد يبدو من القريب أن يقوم أحد اللفظين مقام الآخر. ولكن عندما نستقرئ استعمال القرآن للكلمتين نجد كلمة "الزوج" تأتي حيث تكون الزوجية مناط الموقف : حكمة وآية، أو تشريعا وحكما. ففى آية الزوجية يقول الله تعالى:

[ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة] .(الروم : ٢١).

[والذين يقولون ربنّا هب لنا من أزواجنا وذريّاتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماما] . (الفرقان : ٧٤).

---

٥٤ ـ عبد الرحمن، د. عائشة، (١٩٧٢م) من أسرار العربية في البيان القرآني، ص ص ٣٨ ـ ٣٩ .

فإذا تعطلت آيتها من الوحدة النفسية والسكن والمودة والرحمة بخيانة أو تباين فى العقيدة فامرأة لا زوج.

[امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه] (يوسف : ٣٠)

[امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما...(التحريم: ١٠).

[وامرأة فرعون إذ قالت: ربّ ابن لي عندك بيتا فى الجنّة ونجني من فرعون وعمله](التحريم:١١).

وحكمة الزوجية فى الإنسان وسائر الكائنات الحية من حيوان ونبات هى اتصال الحياة بالتوالد. وفى هذا السياق يكون المقام لكلمة زوج، وزوجين، وأزواج من ذكر وأنثى، كما وردت فى آيات القرآن كثيرا. فإذا تعطلت حكمة الزوجية فى البشر بعقم أو ترمل، فامرأة لا زوج. كالآيات فى امرأة إبراهيم وأمراة عمران. وتضرع زكريا إلى الله سبحانه.

[وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليّا] (مريم : ٥).

[قال ربّ أني يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر] (آل عمران: ٤٠).

ثم لما استجاب له ربّه وحققت الزوجية حكمتها كانت الآية:

[فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه] (الأنبياء : ٩٠)

وفى آيات التشريع تتعلق الأحكام بالزوج والأزواج حين تكون الزوجية منظورا إليها فى الحكم، كأحكام المواريث. ويأتي حكم العدة متعلقا بالنساء، لا بالأزواج، فى الطلاق والإيلاء، أما عدة الوفاة فيتعلق حكمها بالأزواج؛ إذ ليس الانفصال بالموت كالانفصال بالطلاق أو الإيلاء.

فيأتي فى سورة البقرة:

[والذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا] (البقرة : ٢٣٤)." [٥٥]

ـ الإنسان والإنس

وترى فيهما أننا " إذا نتدبر سر الدلالة فى استخدام كلمة الإنسان فى مواضعها المختلفة، فنرى أنه لا يقوم مقامه لفظ آخر كالناس أو الإنس ، على القول بترادفها. فاستقراء هذه الألفاظ فى كل مواضع استعمالها القرآني، يشهد بأن لكل منها ملحظا خاصّا فى الدلالة.

فالناس لعامة الجنس :

[يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى ...] (الحجرات : ١٣).

[وتلك الآمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون] (الحشر : ٢١).

ويأتي لفظ الإنس في القرآن فى ثمانية عشر موضعا، كلها مع الجن، فشهد ذلك بأن دلالة الإنسية، بما تعني من نقيض الوحشية، هي المتعينة في الإنس.

[وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون](الذاريات : ٥٦).

[قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله] (الإسراء : ٨٨).

أما الإنسان فإلى جانب كونه من الناس، ومن الإنس نقيض الجان، يتميز بدلالة خاصة على الإنسانية وتتضح هذه الدلالة باستقراء آيات الإنسان فى القرآن وعددها خمس وستون آية فى سياق الأهلية لاحتمال تبعات التكليف،

---

٥٥ ـ عبد الرحمن، د. عائشة، (١٩٧٢م)، من أسرار العربية في البيان القراني، ص ص ٤٥ ـ ٤٧ .

والابتلاء بالخير والشر، والتعرض للغواية، وما يلابس ذلك من غرور وطغيان. والإنسان في القرآن الكريم، لا الإنس، هو الذى اختص بالعلم، وبالبيان وبالجدل، كما أنه الذى يتلقى الوصية ويحمل الأمانة؛[٥٦] " وهى أمانة صعبة أعفيت منها الملائكة وسائر الكائنات المسيرة بالتسخير المطلق " [٥٧] . كما نرى فى الآيات التالية:

[إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوما جهولا] (الأحزاب : ٧٢).

[ووصّينا الإنسان بوالديه حسنا] (العنكبوت : ٨).

[و أنّ ليس للإنسان إلاّ ما سعى] (النجم : ٣٩).

[الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علّمه البيان] (الرحمن : ١ ٤).

[يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا] (الانشقاق: ٧).

فشهد ذلك بأن الإنسان ليس مجرد فرد من الإنس أو الناس ، وإنما مناط الإنسانية فيه معنوية ترقى به من مجرد الإنسانية البشرية، إلى حيث يحتمل تبعات التكليف وإلاداك والرشد، وأمانة الإنسان.

وهكذا تبين الأستاذه مدلولات الألفاظ، فلكل كلمة فى كتاب الله معناها ومدلولها، وهو ملحظ دقيق طيب، لم تكتف الباحثة فيه بالدراسة النظرية، بل قامت مشكورة بدراسة عملية تطبيقية واسعة.

ب ـ الجرس

وقفت بنت الشاطئ مع جانب الكلمة الشكلى مثلما وقفت مع جانبها

٥٦ ـ عبد الرحمن، د. عائشة، (١٩٧٧م) التفسير البياني، جـ ٢ ، ص ص ٨١ ـ ٨٢) .
٥٧ ـ عبد الرحمن، د. عائشة، (١٩٧٢م) الشخصية الإسلامية، ص ١٧ .

الدلالى من خلال مراجعتها لكثير من الفروق الدلالية التي أثبتتها لما رآه بعض اللغويين من قبيل الترادف.

وقد وقفت مع جانب الشكل من خلال معالجتها لجرس اللفظ الذى تناقشه في الفواصل القرآنية.

وهى تناقش في جرس الفواصل القرآنية ما تمثله من ضرورة دلالية أو رونق لفظي، تقول: "نتدبر الفواصل القرآنية، لنرى ما إذا كان البيان الأعلى يتعلق في فاصلة منها بمجرد رعاية شكلية للرونق اللفظي، أو أن فواصله تأتى لمقتضيات معنوية، مع نسق الإيقاع بهذه الفواصل، وائتلاف الجرس لألفاظها التي اقتضتها المعاني على نحو تتقاصر دون طاقة البلغاء" (٥٨)

وقد قامت بمعالجة هذا الأمر من خلال تأمل لفظ المقابر واستخدامه بدلا من لفظ القبور في قوله، عز من قائل ، مثلا، في آية التكاثر: [ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر] (التكاثر ١ ـ ٢) .

تقول في تحليلها البلاغي للفاصلة القرآنية في هاتين الآيتين الكريمتين: "تجد الصنعة البلاغية فيها أن المقابر أوثرت على القبور، للمشاكلة اللفظية بينها وبين التكاثر. ويحس البلاغيون، ونحس معهم، نسق الإيقاع بها وانسجام الجرس.

لكن وراء هذا الملحظ البلاغي في النسق اللفظي، ملحظاً بيانياً اقتضاه المعنى؛ فالمقابر جمع مقبرة وهى مجتمع القبور، واستعمالها هنا هو الملائم معنويا لهذا التكاثر، دلالة على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون في حطام

٥٨ ـ عبد الرحمن د. عائشة (١٩٧١) الإعجاز البياني، ص ٢٥٥ .

الدنيا. هناك حيث مجتمع الموتى ومحتشد الرسم على اختلاف الأعمار والأجيال والطبقات. وهذه الدلالة من السعة والعموم والشمول، لا يمكن أن يقوم بها لفظ القبور جمع قبر.

فبقدر ما بين قبر ومقبرة من تفاوت، يتجلى البيان القرآني في إيثار المقابر على القبور، حين يتحدث عن غاية ما يتكاثر فيه المتكاثرون على مرّ العصور والأجيال"[٥٩]

كما تناقش الفاصلة القرآنية في آيتي الهمزة: [نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة* إنها عليهم مؤصدة] تقول في تفضيل لفظ الأفئدة على القلوب: عدل عن لفظ القلوب إلى لفظ الأفئدة" للمشاكلة بين رؤوس الآيات.

ولا تترادف الأفئدة والقلوب في حس العربية المرهف، ليقال فيهما برعاية الفاصلة بل يطلق القلب بدلالة عامة على الجهاز العضوى من أجهزة الجسم، وعلى موضع الشعور والأهواء والعقيدة والوجدان.

أما الفواد فلا يطلق إلا بدلالة خاصة على المعنوى دون العضوي. ونحن نعرف مثلا جراحة القلب، أما جراحة الفواد فلا تدخل في نطاق الطب البشرى. ونحن نأكل القلب كما نأكل الكبد والكلى، أما الفواد فليس مما يؤكل أو يباع. ونحن نعرف قلوباً للبشر والحيوان الأعجم على اختلاف فصائله، أما الفؤاد فللإنسان لا غير.

وبهذه الخصوصية في الدلالة المعنوية للفواد جاء اللفظ مفرداً وجمعاً ست عشرة مرة في القرآن الكريم، ليس فيها ما يمكن أن يحمل على معنى

٥٩ ـ عبد الرحمن، د. عائشة، (١٩٧١م) الإعجاز البياني، ص ٢٥٥).

الجارحة. والقلب وإن جاء في القران غالباً في المعنويات من الاطمئنان والسكينة والرحمة والتآلف والخشوع والوجل والفقه والطهر، ومع الارتياب والتقلب والخوف والتكبر والمرض والإثم والغفلة والعمى، إلا أن العربية لغة القرآن لا تستعمل غير القلب في الدلالة الأصلية على هذا العضو من الجسم.

وإذن يكون لإيثار الأفئدة على القلوب في آية الهمزة، مع الملحظ البلاغي من النسق اللفظي والجرس الصوتى، مقتضاه المعنوي البيانى، في تخليص الأفئدة من حس العضوية التي يحتملها لفظ القلوب فيما ألف العرب من لغتهم. ولا نزال نستعمل القلب بمعناه العضوي في التشريح والطب وأصناف اللحوم، ولا نستعمل الفؤاد بهذه الدلالة على الإطلاق.[٦٠]

سر التعبير

يعنى دارسو البلاغة بكل من مستوى الكلمة والتعبير؛ إذ إن لكل واحد منهما وظيفة دلالية خاصة في النص الفنى الأدبي، يقول الراغب الأصفهاني عن ألفاظ القرآن الكريم التي تلزم العناية بها عند تفسير القرآن الكريم:

"ألفاظ القرآن هي لُبُّ كلام العرب وزُبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم. وماعداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لُبوب الحنطة".[٦١]

وترجع العناية بالتعبير في الدراسة الفنية للنصوص الأدبية إلى أن التعبير

٦٠ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧١) الإعجاز البياني، ١٩٧١م ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

٦١ ـ (الراغب الأصفهاني، مقدمة مفردت ألفاظ القرآن، ص ن .

ينتظم الأساليب اللغوية المختلفة التي يمكن أن يقوم فيها مفهوم النظم الذي يجعل البحث في الأسلوب أكثر فائدة من البحث في الألفاظ المفردة. يقول الإمام عبد القاهر: "الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ".(٦٢)

كما يقول كذلك:

" والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عداً كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده ونظامه الذى عليه بُني، وغيرت ترتيبه الذى بخصوصيته أفاد كما أفاد، أخرجته من كمال البيان، إلى مجال الهذيان، وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذى له كانت هذه الكلم بيت شعر، أو فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة.(٦٣)

وقد أظهرت بنت الشاطئ في دراستها للبلاغة القرآنية قدراً من الاهتمام بالأسلوب وذلك من خلال أمرين:

أولهما: مناقشتها بعض القضايا الخاصة بالأسلوب والنظم؛ حيث عارضت عبد القاهر في اعتماده في دلائل الإعجاز على الشعر والنثر دون اقتصار على القرآن الكريم، تقول:

٦٢ ـ عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٣٨ .

٦٣ ـ الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق محمد رشيد رضا الشيخ أسامة صلاح الدين، بيروت: دار أحياء العلوم، ط ١٩٩٣م ، ص ١١ .

"وما نجادل فيما ذهب إليه "الجرجاني" من أن الدراية بأسرار العربية، هي السبيل إلى فهم إعجاز النظم القرآني فغير متصوّر أن يكون لمن أعوزته الدراية بأسرار التعبير في لغة ما أن يقدر روائع نصوصها، فضلاً عن أى يميز وجه البلاغة فيها. لكننا نختلف مع الجرجاني، في أن تُلتمس أسرار البيان العربي في شعر الشعراء ونثر البلغاء، ولا تلتمس في النص الأعلى الذى لا يمكن أن يصح لنا ذوق العربية بمعزل عنه".(٦٤)

ونرى أن اعتماد عبد القاهر في بعض أمثلته على الشعر والنثر يرجع إلى رغبته في تغيير النص بالحذف أو الزيادة أو استبدال بعض الكلمات فيه لبيان بلاغة النص من خلال مقابلته بنص آخر فيه حذف أو زيادة واستبدال أو غير ذلك من التغييرات التي لا تليق مع الأدب الواجب علينا نحو القرآن الكريم.

ثانيها: دراستها لبعض الأساليب في القرآن الكريم، نحو مسائل الاستغناء عن الفاعل، وأسلوب الاستفهام البلاغي، وتركيب الفواصل القرآنية.

تقول عن أهمية دراسة مثل هذه الأساليب:

"والأمر كذلك فيما يهدى إليه الاستقراء من وجوه بيانية وظواهر أسلوبية، نقدمها منه دون أن نخشى فيها مخالفة" لبغض قواعد النحويين وأحكام البلاغيين. لأن الأصل أن تُعرض قواعدهم وأحكامهم على البيان الأعلى، لا أن نعرض القرآن عليها ونخضعه لها".(٦٥)

أ ـ الاستغناء عن الفاعل

تناقش بنت الشاطئ الأفعال التي وردت في القرآن الكريم مبنية للمجهول،

---

٦٤ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧١م)، الإعجاز البياني ص ١١٠ ، ١١١ .

٦٥ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٧م) التفسير البياني ج٢ ـ ص ٨ .

أو مسندة إسنادا مجازيا. وقد ذكرت أن البلاغيين يكتفون بالقول بأن الفاعل قد حذف للعلم به أو الجهل، أو الخوف منه أو عليه، وتبين أن الفعل إذا كان مبنيًا للمجهول، يكون حذف الفاعل لتركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن المحدث، وأن الإسناد المجازي يعطي المسند إليه فاعلية محققة يستغني بها عن ذكر الفاعل الأصلي، ويظهر هذا فى مشاهد يوم القيامة مثل:

[ونفخ في الصور] . (الكهف : ٩٩).

[وجيئ يومئذ بجهنم]. (الفجر : ٢٣).

[وسيق الذين اتقوا ربهم]. (الزمر : ٧٣).

فلم يذكر الفاعل هنا للتركيز على الحدث.

كما تبين أن الفاعل قد لا يذكر ليبين أن الحدث يحدث تلقائيا أو على وجه التسخير، كأنه ليس بحاجة لفاعل كقوله: (اقتربت الساعة وانشق القمر). (القمر: ١).

تقول: "نلاحظ أن الذي يستقر فى فهمنا ومنهجنا هو أنه حيثما استغنى القرآن عن الفاعل، فلنفهم أنه يريد لنا أن نصرف النظر عنه، وليس لأحد أن يتأول فاعلا لم يتعلق البيان بذكره، وإنما نتدبر سر هذا الاستغناء عن الفاعل، ووجه صرف النظر عنه. [٦٦]

ب ـ أسلوب الاستفهام البلاغي

"تستهل سورة الماعون. بهذا الاستفهام المثير [أرأيت الذى يكذب بالدين]؟ والأصل في الاستفهام أن يكون من سائل يطلب الفهم ويستفسر عما يجهل،

٦٦ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧٢م) من أسرار العربية في البيان القرآني، ص ٥٦ .

أما حين يكون المستفهم على علم بما يستفهم عنه، فإن الاستفهام يخرج بذلك عن أصل معناه في الوضع اللغوي، إلى المجاز البلاغي". [٦٧]

وفيما أحصى النحويون والبلاغيون من أغراض يخرج بها الاستفهام عن معناه الأصلي.

عند الزركشي[٦٨]: "الهمزة إذا دخلت على (رأيت) امتنع أن تكون من رؤية البصر أو القلب وصارت بمعنى "أخبرنى"، كقولك: أرأيتك زيداً ما صنع؟ في المعنى تعدّى بحرف، وفى اللفظ تعدّى بنفسه، ومنه قوله تعالى [أرأيت الذى يكذب بالدين] ولكن أعربه ابن الانبارى" (يرى) من رؤية العين لا من رؤية القلب لأنه إذا جعل من رؤية العين لم يتعد إلا إلى مفعول واحد، وليس في الآية إلا مفعول واحد (الذى). وإذا جعل إلى رؤية القلب افتقر إلى مفعولين.

فيؤدى ذلك إلى حذف المفعول الثاني، والمفعول الثاني لا يجوز حذفه من هذا النحو؛ لأنه مما يتعدى إلى مفعولين، ولا يجوز الاقتصار على أحدهما".[٦٩]

وعند الراغب: أن "أرأيت" يجرى مجرى (أخبرنى) وأن كل ما فى القرآن من هذا الأسلوب" فيه معنى التنبيه". [٧٠]

وقال الفخر الرازى فيه: "إن هذا اللفظ وإن كان في صورة الاستفهام، فإن

---

٦٧ ـ عبد الرحمن، د. عائشة(١٩٧٧م) التفسير البياني، جـ ٢ ، ص ١٨٣ .

٦٨ ـ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، جـ ٤، ص ٢٠٢ .

٦٩ ـ ابن الانباري، أبو البركات، البيان في غريب إعراب القرآن، جـ ٢ ، تحقيق، د. طه عبد الحميد طه، إيران: منشورات دار الهجرة قم، ١٤٠٣هـ، ص ٥٣٨ .

٧٠ ـ الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص ١٨٨ .

الغرض منه المبالغة والتعجب".[٧١]

ولكن تميل عائشة إلى القول: "بأن سره البياني في الاستفهام عما يبدو للناس واضحاً غير خفى، ويحسبونه معلوماً غير مجهول، إذ ليس التكذيب بالدين مظنة خفاء والناس يحسبون أنه يكفى المرء تصديقاً بالدين أن ينطق بالشهادتين ويؤدى العبادات المفروضة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

ومن ثم يأتي الاستفهام عما يحسبه الناس مستغنياً عن كل بيان، فيثير أقصى اليقظة والانتباه، ويرهف الدهشة والترقب انتظاراً لجواب غير متوقع، وتطلعاً إلى معرفة ماذا يكون التكذيب بالدين غير الذى يعلمون منه بالضرورة؟".[٧٢]

جـ ـ تركيب الفواصل

عالجت بنت الشاطئ مما يتصل بالتعبير تركيب الفواصل القرآنية. وقد عالجت في تركيب الفواصل تعدية الفعل وترتيب الجملة. تقول عن التعدية في مناقشتها للفواصل في آيات الزلزلة:

[وأخرجت الأرضُ أثقالها * وقال الإنسان مالها * يومئذٍ تحدّث أخبارها * بأنّ ربَّك أوحى لها].

تنقل عند العلماء وتناقش هذه الفواصل، تقول: "قالوا فيها: وعدّى أوحى باللام، وإن كان المشهور تعديتها بإلى، لمراعاة الفواصل. ونستقرئ مواضع فعل الإيحاء في القرآن كله فلا نراه يتعدى بـ "إلى" إلا حين يكون الموحى إليه من الأحياء. يطرد ذلك في كل آيات الإيحاء بإلى، وعددها سبع وستون آية.

---

٧١ ـ الرازى، فخر الدين، التفسير الكبير، جـ ٣٢، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٠م ، ص ١١ .

٧٢ ـ عبد الرحمن د. عائشة، (١٩٧٧م) التفسير البياني، جـ ٢، ص ١٨٤ .

أما حين يكون الموحى له جماداً، فالفعل يتعدى باللام كآية الزلزلة، أو بحرف في، كما في آية فصلت: [وأوحى في كل سماء أمرها]. ودلالة (اللام، الإيحاء المباشر على وجه التسخير؛ ودلالة (في) البثّ الملابسة. أما الإيحاء بـ (إلى) فيأخذ دلالته الخاصة في المصطلح الديني للوحي، إذا كان الموحى إليه من الأنبياء.

وإلى غير الأنبياء، بشراً أو حيواناً، يكون الإيحاء بمعنى الإلهام لا غير. وإذن لا تأتي تعدية أوحى باللام، للأرض في آية الزلزلة، عدولاً عن (أوحى إليها) لمراعاة الفواصل. بل التعدية باللام هنا متعينة، لأن الموحى إليه جماد، وقد هدى الاستقراء إلى أن القرآن لا يُعدى الفعل بحرف (إلى) إلاّ حين يكون الموحى إليه من الأحياء.[٧٣]

وتقول في التقديم والتأخير، مراعاة للفاصلة في مثل آية الليل:

[إنّ علينا للهدى* وإنّ لنا للآخرة والأولى].

عدل البيان القرآني فيها عما هو مألوف ومتبادر من تقديم الأولى على الآخرة. وليس القصد إلى رعاية الفاصلة، هو وحده الذى اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأول. وإنما اقتضاه المعنى أولاً، في سياق البشرى والوعيد؛ إذ الآخرة خير وأبقى، وعذابها أكبر وأشد وأخزى ...

وبهذا الملحظ البياني قدمت الآخرة على الأولى في سياق البشرى للمصطفى، صلى الله عليه وسلم ، بآية الضحي:

[وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى] كما قدمت الأخرة على الأولى في سياق الوعيد لفرعون، بآية النازعات:

---

٧٣ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧١م)، الإعجاز البياني، ص ٢٥٧.

[فقال أنا ربّكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى] [٧٤]

ومنطق الإعجاز أنه ما من فاصلة قرآنية لا يقتضى لفظها في سياقه، دلالة معنوية لا يؤديها لفظ سواه. قد نتدبره فنهتدى إلى سره البياني، وقد يغيب عنا فنقر بالقصور عن إدراكه.

إن البلاغة من حيث هى فن القول، لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدبائه، لا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها، كما لا تعتد بألفاظ جميلة تضيع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعى.[٧٥]

رحم الله بنت الشاطئ كانت نموذجاً فريداً لدارس القرآن الذى يحصل علوم السلف، ويؤمن في الوقت نفسه بأن النص القرآني لا يزال ينطوى على كنوز مخبوءة لم تصل إليها يد السابقين وينبغى على المتخصصين متابعة الجهود الكريمة التي ابتدأها سلفنا الصالح، تقول: "لا شك أن في القرآن الكريم كنوزاً ضخمة من الإشارات واللّفتات واللطائف والإيحاءات، والمعانى والحقائق والدلالات، وإن باب التفسير لا يمكن أن يُغلق، ولا بد أن يظهر في كل جيل مفسر ـ أو أكثر ـ لكلام الله . ولأجل كل عصر حاجاتهم وهمومهم وقضاياهم ومشكلاتهم، ويسجدون في القرآن ما يبحثون عنه. فعلم التفسير علم حي نام متقدم، ليس كبعض العلوم الإسلامية "المحترقة" التى أشبعت بحثا حتى قيل عنهم: "ما ترك الأول للآخر شيئا" ولكن بالنسبة للتفسير يجب علينا أن نصحح بوضع "كم" الخبرية التكثيرية مكان "ما" النافية، فنقول: "كم ترك الأول للآخر" ـ أي ترك الأوّلون للآخرين الكثير من معانى القرآن ودلالاته ولطائفه"[٧٦]

٧٤ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧١م) ، الإعجاز البياني، ص ٢٥٨ .
٧٥ ـ عبد الرحمن، د. عائشة (١٩٧١م) ، الإعجاز البياني ص ٢٥٨ .
٧٦ ـ مقدمة لطائف قرآنية، ص ٥ ، ١٢٩ .

المصادر

* **الأصفهاني، الراغب**

١ ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي، ١٩٧٢م.

* **الألوسي، السيد محمود**

٢ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، إيران: انتشارات جهان تهران.

* **ابن الأنباري، أبو البركات**

٣ ـ البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق د. طه عبد الحميد طه، مراجعة مصطفى السقا، إيران : منشورات دار الهجرة قم، ١٤٠٣هـ .

* **الأندلسي، أبو حيان**

٤ ـ تفسير البحر المحيط، بيروت: دار الفكر . ط ٢ .

* **ـ أنيس، د. إبراهيم**

٥ ـ دلالة الألفاظ، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٤ .

* **الثعالبي، محمد**

٦ ـ فقه اللغة وسر العربية، تحيق سليمان سليم البواب، دمشق: دار الحكمة للطباعة والنشر، ١٩٨٤م .

* **ـ الجرجاني، عبد القاهر**

٧ ـ أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق محمد رشيد رضا، الشيخ أسامة صلاح الدين، بيروت: دار إحياء العلوم، ط ١ ١٩٩٣م .

* **الخالدي، د. صلاح عبد الفتاح**

٨ ـ لطائف قرآنية، دمشق: دار القلم ، ط ١ ١٩٩٢م .

* **الدامغاني، محمد**

٩ ـ إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق: عبد العزيز سيدالأهل، بيروت: دار العلم للملايين، ط ٢ ١٩٧٧م.

* **دراز، د. محمد عبد الله**

١٠ ـ النبأ العظيم، مصر: مطبعة السعادة، ١٩٦٠م .

* **الرازي، فخر الدين**

١١ـ التفسير الكبير، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٠م .

* **الرافعي، مصطفى صادق**

١٢ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، راجعه: محمد سعيد العريان، مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ط ٨، ١٩٧٠م.

* **رضا، محمد رشيد**

١٣ ـ تفسير المنار، بيروت: دار المعرفة، ط ٢ .

* **الزركشي،**

١٤ ـ البرهان في علوم القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١ ١٩٨٨م .

* **الزمخشري، جار الله**

١٥ ـ الكشاف ، بيروت: دار المعرفة.

* **الطبري، ابن جرير**

١٦ ـ جامع البيان في تفسير القرآن العظيم، إيران: انتشارات جهان تهران.

* **عباس، د. فضل حسن وعباس، د. سناء فضل :**

١٧ ـ (١٩٩٩م) إعجاز القرآن الكريم، عمان.

* **عبد الرحمن، د. عائشة**

١٨ ـ (١٩٧١م) الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق، مصر: دار المعارف.

١٩ ـ (١٩٧٢م) الشخصية الإسلامية، بيروت: جامعة بيروت العربية.

٢٠ ـ (١٩٧٢م) من أسرار العربية في البيان القرآني، بيروت: جامعة بيروت العربية.

٢١ ـ (١٩٧٧م) التفسير البياني للقرآن الكريم. مصر: دار المعارف. ط ٥ .

٢٢ ـ (١٩٨٤م) تراجم سيدات بيت النبوة. بيروت: دار الكتاب العربي.

* **العسكري، أبو هلال**

٢٣ ـ الفروق في اللغة، كوئتة: مكتبة إسلامية، ١٤٠٤هـ .

* **عمر، د. أحمد مختار**

٢٤ ـ (١٩٨٨م) علم الدلالة ، مصر: عالم الكتب القاهرة، ١٩٨٨م.

* **ناصف، على النجدي**

٢٥ ـ مع القرآن الكريم، مصر: دار المعارف.

* **وافي، د. على عبد الواحد**

٢٦ ـ فقه اللغة، مصر: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

* **ابن هشام، جمال الدين**

٢٧ ـ مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، بيروت: دار الفكر. ط ٥ ١٩٧٩م.